الارتقاء الأدبي بمخيِّلة الطفل

أ. عبد الباقي يوسف،

روائي وأديب سوري

الطفل هو صغير الكبير، والكبير هو كبير الصغير؛ ولذلك فإن العلاقة بينهما هي علاقة الصغير بالكبير، وعلاقة الكبير بالصغير... ينظر الكبير إلى الصغير على أنه صغير، وينظر الصغير إلى الكبير على أنه كبير... دائم الطلب من الكبير، والكبير دائم الاستجابة للصغير. يحتاج الصغير إلى الكبير لتحقيق احتياجاته الأساسية والثانوية: يحتاج إلى ممازحته، إلى التدلل عليه، إلى حمايته، إلى أبوته... والكبير يستجيب له: يحمله بين ذراعيه، يمازحه، يقبله، يعلمه، يوجهه ، يربيه.

إنه – وهو يفعل ذلك – يشعر بأنه يمارس مزايا أبوته، ويتقدم في درجات هذه الأبوة، وينتابه رضا عن نفسه كلما مدّ خطوة جديدة على درجات كمالية مزايا الأبوة؛ لذلك نرى العامل يخرج من بيته في ساعة مبكرة، يشقى طوال النهار في عمله العضلي المجهد، حتى يعود آخر النهار حاملًا بيده متطلبات أطفاله بالدرجة الأولى، ولا يشعر بالسعادة قدر شعوره بها وهو يمد متطلبات أطفاله إليهم، حتى لو كانت زهيدة الثمن.

إنه لا يشعر بتلك السعادة وهو يناول زوجته حاجات البيت الباهظة الثمن؛ لأن الطفل يعبر بتلقائية عن سعادته حتى وهو يفض الغلاف عن قطعة

شوكولاتة صغيرة، إنه يمتلئ فرحة ودهشة وشكرًا للأب الذي جلب له تلك الشوكولاتة، في حين أن الأم تتناول السلع من يده بشكل طبيعي، بل قد لا تتناولها أيضًا، فيدخل المطبخ، ويرمي تلك السلع التي طلبتها منه لدى خروجه من البيت. إنها لا تتفاعل ولا تبدي حبورها مع ذلك بشكل فوري ومباشر كما يفعل الطفل؛ ولذلك فإن الأب ينسى شقاء اليوم وهو ينظر إلى ابنه يستجيب ويتفاعل مع مطلبه بشكل فوري مباشر.

فالأب مستعد أن يبذل قصارى جهده، حتى عندما يقول له طفله: بابا أعطني .. يمد يده إلى جيبه بسخاء أبوة الأب، وهو يقول: خذ يا بني .. ومستعد أن يضع نفسه في موقف محرج كأن يستدين من بعض معارفه في بعض المناسبات، مثل مناسبة العيد؛ حتى لا يمضي العيد دون أن يشتري لأطفاله ثيابًا جديدة أسوة ببقية الأطفال. إنه ينسى شراء ثياب لنفسه، وتنسى الأم شراء ثياب لنفسها، بيد أنهما لا يمكن بأية حال أن يتصورا أن يأتي العيد دون أن يشتريا ثيابًا وأحذية جديدة لأطفالهما.

إن الطفل هو دائم القول لأبيه: بابا اشتر لي... بابا أعطني... ويسعى الأب بكل ما في وسعه حتى يبقى يقول لطفله: خذ يا بني... يقولها بصدر منشرح، وفم مبتسم حتى لو أنه قد وضع نفسه في موقف محرج... بيد أن كل حرج يهون عليه وهو يستجيب لابنه، قائلًا ومادًا يده إلى جيبه بذات الوقت: خذ يا بني.

لذلك كانت منزلة الأبوين رفيعة وعزيزة في القرآن الكريم، حتى أن الله بعزته وجلاله قد أوصى بهما بشكل مباشر وواضح، لا يحتاج إلى تفسير أهل الفقه وعلوم التفسير، إنها وصية الله للأبناء، ويمكنني ملاحظة أن القرآن الكريم كان أول كتاب يتحدث عن جوهر العلاقة بين الآباء والأبناء من جهة، وبين الكبير والصغير من جهة أخرى، ويمكننا التعرف من خلاله على سيكولوجية الطفولة، وسيكولوجية الأبوة، على مسئولية الأبوة، وآداب التعامل مع الطفل، وبعد ذلك جاءت الأحاديث النبوية، وجاءت السنة الشريفة في التعامل مع الأطفال، ثم جاءت مواقف الصحابة، ثم اجتهادات وكتابات أئمة الفقه.

لذلك فإن صورة قراءة أدب الطفل لا تكون مكتملة إذا خلت من قراءة الطفل في القرآن، ثم في التراث الفقهي الإسلامي؛ لذلك انتشر أدب الأطفال في الوطن العربي ولاقى استحسانًا وقبولًا من مختلف الشرائح الاجتماعية، لقد أوصى الإسلام بأهمية وضرورة تعليم وتربية وتثقيف الطفل، وكان ذلك الركيزة الأساسية التي دفعت مجتمعاتنا نحو الانفتاح على عالم أدب الطفولة.

عندما يحظى الإنسان بنعمة الأبوة، أو الأمومة، فإنه يحظى بأثمن ما يمكن أن يحرّك مشاعره في الحياة، وليس ثمة أعز أو أنفس من الإنسان، يحظى الإنسان هنا بإنسان ليكون خليفته، هذا الإنسان الذي ليس بوسع الإنسان أن يأتي به مهما بلغ من مال وجاه ونفوذ، ولكن الله إذا شاء، فإنه يهب للإنسان الأبناء.

إننا نتعرف على معالم الطفولة سواء من خلال ما نقرأ، أو من خلال تعايشنا اليومي مع أطفالنا، وكل قراءة تعزز لدينا معرفة عالم الطفولة، كما أن كل طفل يعلمنا ما لم يعلّمه لنا الذي قبله.

إن صفة الهبة في هذا المقام تضفي هالة من السمو إلى كينونة الطفل، وتجعل الأبوين يشعران بأن الله عز وجل أعزّهما وأكرمهما، وخصهما بهذه الهبة الثمينة التي حُرم منها كثير من الناس؛ لذلك نرى الأم تحجب مولودها عن عيون المبارِكين، وتحرص ألاّ تقع عليه عين غريبة، وألاّ تُخرجه من البيت خلال الأربعين يومًا الأولى من ولادته، تضع مصحفًا صغير الحجم بجانب وسادته الصغيرة، تعلّق بثوبه حجابًا وخرزة زرقاء عليها رسم عين؛ كي ترد النظرة الحاسدة بحسب ما تعتقد الأم، إلى جانب حرقها الحرمل ونشر الدخان في البيت، وبعض الأعشاب والبخور، وفقع مادة الرصاص في الماء، وتلبث تقرأ له المعوذات وبعض الآيات التي تدفع عنه العين الحاسدة، وهي في حالة قلق عليه حتى يشتدّ عوده، وينتصب واقفًا على قدميه.

من هنا كان لا بدّ من توجيه هذا الطفل، وتنمية موهبته وذكائه، فجاءت فكرة صناعة أدب الطفل، كجنس أدبي مستقل موجه إلى عالم الطفل، معينًا وداعمًا لجهود الأبوين وجهود المعلم، في سبيل الحفاظ على هذه الهبة الإلهية الثمينة التي تتعلق عليها آمال وأحلام وأمنيات العالم الإنساني برمته.

يقول هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابه من علي ومن يحيى وذلك به خليق
وإن يشبهها خُلُقًا وخَلقًا فقد تسرى إلى الشبه العروق

ويقول الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيمٌ ولم يولــد له ولدٌ والمرء يخلفـــه من بعده الولد

فقلتُ مَن علقت بالحربِ هِمَّتُه عافَ النساءَ ولم يكثر له عدد

إن كاتب أدب الطفل يعدّ قارءه الطفل كي يكون حامل منارة المستقبل، يسعى ما بجهده كي يعزز في نفسه سلوك وقيم وتقاليد القراءة، ويُظهر له منزلتها وأولويتها بالنسبة لشخص يرغب في أن يكون له شأن، ولا يكون على هامش الحياة، شخص له قيمة، ومؤتمن على حاجات الناس، رجل نافع صالح يتقدم مجتمعًا، وقد يتقدم زمنًا كاملًا.

إنه يعدّه كي يكون قارئًا متدبرًا للكتب السماوية، كي يكون قارئًا ماهرًا لتراث الأنبياء، لتأويلات الفقه الديني، قارئًا لثورات الفكر، والفلسفة، والتحليل، قارئًا لعيون الآداب الإنسانية، ومن ناحية أخرى فإن كاتب أدب الطفل يدرك بأنه يعدّ طبيب المستقبل، يعد عالم المستقبل، يعد المهندس والقاضي والأديب والفنان وولي أمر الناس في المستقبل، إنه يعد الهبة التي وهبها الله، ليس لأبويه فحسب، بل للناس كافة، ومن هنا اكتسب أدب الطفل أهمية بالنسبة لمختلف شرائح الناس، واكتسب كاتب أدب الطفل خصوصية تجعل الآخرين ينظرون إليه نظرة أبوية استثنائية.

لقد اغتنت مكتبة الطفل منذ نحو أربعة قرون ماضية بعيون الكتابات الطفولية من مختلف أجناس وألوان الآداب والفنون في كل بقاع الأرض، ولدى

جميع شعوب العالم، وهي كتابات تقف على درجة متقدمة من الأهمية، وقد ترعرعت وتربت عليها أجيال الإنسانية، وظلت تراثًا أدبيًا تتزود منه الأجيال.

قدمت المكتبة الطفولية في الوطن العربي الكثير من المعارف والمواعظ للطفل، ووجهته بطرق أدبية غير مباشرة إلى سبل الصلاح والتفوق، والقيم والأخلاق، والعمل والمساواة والمحبة، واليوم فإن طفلًا يقرأ هو متقدم على طفل لا يقرأ، وأب يقرأ هو أب متقدم على أب لا يقرأ، وأم تقرأ هي أم متقدمة على أم لا تقرأ، ومجتمع يقرأ هو مجتمع متقدم على مجتمع لا يقرأ.

الطفل بشارة الله إلى الإنسان

الإنسان هو أثمن ما يمكن أن يحصل عليه المرء، ولا ترجح كفة شيء في العالم على كفة الإنسان: صديق وفي، وجار طيب، وبائع صادق، وشريك أمين، حتى عندما نسافر نرغب أن يكون مجاورنا شخصًا طيبًا، والإنسان المحظوظ تكون علاقاته بأناس صادقين في مناحي حياته.

يمكن لك أن ترى شخصًا، فينفس عنك كربًا، ويمكن أن تسمع كلمة تخفف عنك حالة مضطربة، والإنسان بطبعه عندما تشتد عليه الشدائد، يلجأ بشكل تلقائي إلى أقرب إنسان إليه، وحتى في مسألة الكتابة، فإن الشدائد هي التي تولّد الإبداعات الكبرى والمهمة، وما ذلك إلا لأن المبدع يريد أن يكتب لمن يقرأ له، يريد أن ينفّس عن حالته بالكتابة، إذن فالكتابة بذاتها هي عملية علاج بالنسبة للكاتب، كما أنها عملية علاج بالنسبة للمتلقي.

الإنسان يغتني بالإنسان، وليس له غنى إلا بالإنسان، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للآخرين، فإنه يكون على درجة أكثر حميمية عندما يهب الله إنسانًا للإنسان؛ ولذلك يبشر الله بالطفل، والطفل هو بشارة من الله إلى الإنسان، وعندما يشاء الله أن يرزق الأبوين طفلًا، فإنه بعزّته وجلاله يبشرهما بقدوم هذا الطفل؛ لأن ذلك حدث سعيد بكل المقاييس، وحتى عندما تذهب المرأة لإجراء تحليل التفاعل الحملي، فإن الطبيب المخبري يكتب كلمة (إيجابي) إذا كانت المرأة حاملًا، ويكتب كلمة (سلبي) إن لم يكن بها حمل، يكتب هذا وفق القاعدة العامة، وربما أدت كلمة إيجابي إلى إلحاق أذى بالمرأة في بعض الحالات، وسبَّب الحمل لها كارثة، إلا أن الحمل بكل المقاييس هو عمل خير، وهو بشارة من الله للإنسان إذا تمعّن الإنسان جيدًا في معنى الولادة؛ ولذلك نرى الله يبشر الإنسان قائلًا: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّا﴾ [مريم: ٧].

وكذلك تقدم الملائكة البشارة بالولادة لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بولده إسحاق: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥١- ٥٣].

والأبناء يزيّنون الحياة أمام الإنسان، فيرى زينة الحياة من خلالهم، يقول الله: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا﴾ [الكهف: ٤٦]، ويقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ

الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

والابن هو قرة العين، وهو الكائن البشري الأقرب إلى أبويه، وقد بيّن القرآن مشاعر الأمومة في الكثير من الآيات، ومن ذلك ما ورد في سورة القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ{٨} وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{٩} وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{١٠} وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{١١} وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ{١٢} فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{١٣} وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١٤}﴾.

البشارة بطبيعتها تكون لوقوع حدث سعيد نفيس، هذا الحدث الذي يُفرح الإنسان المُبَشَّر، ويحدث نقلة نوعية في مسار حياته. البشارة في جميع مستوياتها هي سماعك عن وقوع حدث سار يبلغك به شخص ما لأول مرة. قد تكون البشارة مباشرة، وقد تكون غير مباشرة، ففي بعض المعتقدات تحمل الفراشة بشارة طيبة إلى الشخص التي تتجه إليه؛ ولذلك يرحب بها ولا يطردها،

ويستبشر بقدومها إليه خبرًا أو نبًا سعيدًا. إنه وهو ينظر إلى الفراشة الصغيرة يسعد بقدومها إليه، ولا يبدر عنه أية حركة من شأنها أن تبعدها، عكس ما يفعل مع الذبابة على سبيل المثال؛ لأن الفراشة في جميع الأحوال تكون قد قدمت إليه من زهرة، وهي محملة بعبق الزهور، فيخَيَّل إليه وهو ينظر إليها أنها وردة صغيرة تطير بجناحين، بينما لا يتردد من طرد الذبابة، ولا يدعها تدنو منه.

ويلجأ بعض أهل التنجيم إلى البشارة غير المباشرة العامة من خلال العديد من الوسائل، مثل: قراءة الفنجان، أو الخط في الرمل، أو قراءة الكف، أو قراءة الأبراج. وهي بشارات عامة غير مباشرة تحمل أنباء عن قرب وقوع أحداث انتقالية سعيدة، مثل: الزواج، أو سعة الرزق، أو السفر، أو الولادة، أو زوال كرب. ونظرًا لمنزلة البشارة اشتق منها الناس أسماء مثل: بشارة، وبشار، وبشير، وبشرى، وبشيرة، وبِشر، وبشور.

إن الذي يسارع كي يبشرك بنبأ سعيد يخصك هو شخص محب لك؛ لذلك يهمه أن يكون الأول والأسرع في إيصال هذا النبأ السار والنفيس إليك، وهو يشاركك حبورك، ويشعر بانتشاء وأنت تتلقى من فيه هذا النبأ، وتقدم امتنانك وشكرك العميق له، ولا تتردد من مكافأته نظير البشارة التي قدمها إليك، ومهما بلغ الإنسان من مال وجاه ومجد فإنه يشعر بنقص إن لم يكن له ولد تقر به عينه، وتتزين به حياته، وفي ذروة مشاق التربية فإننا نشعر بمتعة

النظر إلى أطفالنا، بمتعة النظر وهم يضحكون ويتمازحون؛ ولذلك نرى الناس يبذلون ما بوسعهم في سبيل إنجاب ولد.

الولد الصالح هو الظفر الكبير في الحياة، وهو حامل رسالة أبوَيه، ومحطة الأبوة أو الأمومة هي المحطة الانتقالية التحولية الكبرى في حياة الإنسان؛ ولذلك يفضّل الإنسان أن يخسر أي شيء على أن يخسر ولده، وحتى النبي صلى الله عليه وسلم يحزن لخسارة ولده، وهو يقول: {وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون}.

إن ولادة طفل هو فتح باب جديد من أبواب الحياة أمام أبويه، الطفل هو كائن جديد يفتح عينيه لأول وهلة على الحياة في كنف أبويه، وهما عندما ينظران إليه، فإنهما يشتَمَّان منه رائحة الماضي – ماضيهما عندما كانا طفلين – ، ورائحة المستقبل – مستقبله وهو يصبح مثلهما – يتزوّج وينجب لهما حفدة كما أنجبا لأبويهما حفدة؛ لذلك نرى في بعض التقاليد الاجتماعية ما يشبه عقد القران المبكر عندما يطلب رجل بشكل رسمي من رجل آخر أن تكون ابنته المولودة للتو لابنه الطفل، ويحدث بينهما ما يشبه العهد على ذلك، حتى يتم الزواج بشكل مبكر.

الطفل هو هبة من الله، والهبة تُعطى للإنسان دون مقابل، وهي تختلف عن الرزق، فالله يرزق بالمال وما شابه، وعندما يأتي ذكر الولد فإن الهبة تُذكر؛ وذلك حتى يميز الإنسان بين الإنسان كقيمة، وبين ما يملك من أرزاق يسوقها الله إليه.

يقول الله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وعندما يشكر الإنسان ربه على الأبناء، يذكر الهبة كما في حمد إبراهيم عليه السلام لربه قائلًا: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقد ورد الأبناء في الكثير من آيات القرآن، ومن ذلك قول الله عز وجل:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].
- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].
- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

إن الطفل هو إنسان جديد يبشر به الله ويهبه للإنسان، سواء سأل الإنسان ربه هذه الهبة أو لم يسأل؛ ذلك أن الله يهب لمن يسأله ويهب لمن لا يسأله، ومن أسمائه الحسنى (الوهاب). الهبة هنا تتمتع بخصوصية أعلى درجة من الرزق، إنها تتميز بالديمومة أكثر من الرزق، والولادة هي التي تحافظ على النسل البشري، والولد هو خلف أبيه، وهو الذي ينجب له الحفدة، ويجعله جدًا، فالولد هو فلذة الكبد التي تمشي لا أقول على الأرض، بل تمشي على خفقات قلبَي أبوَيه.

يحرص الإنسان كل الحرص على أن يقدم أولادًا نافعين للمجتمع، فنرى ألوان العناية والاهتمام بهم، خاصة في سنوات الطفولة، حيث تُروى لهم القصص والحكايات الهادفة، وفي سنوات التمكن من القراءة يحضر الآباء لهم القصص والسير بحسب المراحل التي يدخلونها؛ لأن الطفل، وإن كان يحمل السمات الوراثية بنسبة قد تبلغ ستين بالمئة، إلا أنه يكتسب ملامح شخصيته من خلال الواقع الذي يعيش فيه، هذا الواقع الذي يؤثر في تكوين شخصيته.

الدخول إلى مملكة الطفل

عالم الطفولة هو عالم محفوف بالمحاذير والخصائص والمكونات؛ ذلك أن الطفل في حالة نمو بدني ونفسي وعقلي وشخصي وتكويني، وهو يتلقى التأثر من أي منظر يراه، ومن أي كلمة يسمعها، ومن أي حدث يقع أمامه؛ ولذلك نرى مكتبة الأطفال في البيت منفصلة عن مكتبة الكبار، وأحاديث الكبار

تكون في معزل عن الصغار، وأفلام الصغار في التلفاز تختلف عن أفلام الكبار.

يحتاج الطفل إلى عناية تربوية مركزة من أبويه، وكذلك من رياض الأطفال، ومن المدارس، فالإنسان يبقى ابنًا لماضيه، ويبقى ابنًا لأبويه ولمعلميه، بل حتى للحي الذي نشأ فيه، ويبقى الطفل متأثرًا بكل العوامل التربوية والبيئية التي نشأ وترعرع فيها.

لننظر هنا إلى هالة الشفافية والخصوصية التي وصف بها النبي صلى الله عليه وسلم شخصية الطفل، ثم إلى هذا التوجه إلى عامة الناس بشأن التعامل مع الطفل، وهو يحدد ملامح شخصية الطفل للناس من خلال الأحاديث التالية:

- يقول صلى الله عليه وسلم: {أدبّوا أولادكم على ثلاث خصال: حبّ نبيكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن} [كنز العمال ١٦/ ٤٥٦].
- ويقول: {رحم الله عبدًا أعان ولده على برّه بالإحسان إليه، والتآلف له، وتعليمه وتأديبه} [مستدرك الوسائل ٢/ ٦٢٦].
- ويقول: {نظر الوالد إلى ولده حبًا له عبادة}[مستدرك الوسائل ٢/ ٦٢٦].
- وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى رجل له ابنان، فقبّل أحدهما وترك الآخر، فقال صلى الله عليه وسلم: {فهلاّ ساويتَ بينهما} [مكارم الأخلاق ٢٢١].

- ويقول: {إنّ الله تعالى يحبّ أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل} [كنز العمّال].
- ويقول: {اعدلوا بين أولادكم في النحل كما تحبّون أن يعدلوا بينكم في البرّ واللطف} [كنز العمّال ١٦/ ٤٤٤].
- ويقول: {ساووا بين أولادكم في العطيّة، فلو كنت مفضلًا أحدًا لفضلّتُ النساء} [كنز العمّال ١٦/ ٤٤٤].
- وقد أوصى الناس بقوله عن ابن عباس رضي الله عنه: {من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور} [مكارم الأخلاق ٢٢١].

الكتابة للطفل هي محاولة الدخول إلى عالم الطفل ومخاطبته من خلال هذا العالم؛ كي يتعرف بشكل متدرّج على عالم الكبار، وهي خطوات بطيئة تشبه عملية نمو الطفل حتى يقف، ويمشي على قدميه، ويتعرف على الألفاظ، ويبدأ وعيه بالتشكل، وأديب الطفل هو مربيه ومعلمه الذي يرتقي به وفق مراحل عمره، حتى تتفتح مدركاته على وقائع الحياة.

يكتب الكبير أدبًا للصغير، وهو يدرك جيدًا أن عالم الصغير هو عالم مختلف عن عالم الكبير، وفي اللحظة التي يثق فيها بأنه يستطيع أن يقنع الكبير بوجهة نظره، فإنه يتردد كثيرًا في هذه الثقة بالنسبة للصغير؛ ذلك أن الصغير يعقد على الكبير آماله وأحلامه وأمنياته، ونظرة الصغير للكبير مختلفة عن نظرة الكبير للكبير.

إن الخيال الطفولي يتدخل ليضفي على الكبير إمكانات قد لا يبلغها، بيد أن الكبير عليه أن يستجيب لهذه الصورة الخيالية، ويتعامل معها بشيء من التوظيف، فالطفل يحتاج إلى من يتمكن من مخاطبة مخيلته بشكل موجه يتقبله الطفل، ويتجاوب معه.

قد يحدث أن تريد أم أخذ طفلها إلى الطبيب، فيرتعد الطفل ويمتنع، لكنها تقول له: سنذهب إلى بيت جدك، فيرضى ويمضي معها بيسر.

يعتمد الطفل في مراحل نموه على خياله الذي يزيّن له معالم المستقبل، ويجعله يقبل على الحياة بجد ونشاط، والكاتب المتمكن من أدواته الأدبية ينجح في مخاطبة هذا الخيال وتوجيهه الوجهة الصحيحة، وهو يقوم بعملية تربية وتنشئة وبناء شخصية الطفل، ويأنس الطفل للخيال ويتفاعل معه؛ ولذلك اعتمد أدباء الأطفال على توظيف هذه الطاقة لدى الطفل، فكان التوجه إلى التحاور مع الطفل من خلال عالم الحيوان والنبات.

الطفل هو ذاك الكائن البشري الوديع المفعم بالحساسية تجاه كل ما يرى ويسمع، وهو يحتاج إلى رقة وعذوبة واستيعاب لكينونته من خلال أبويه بالدرجة الأولى، وفي جميع الأحوال فإن الطفل يمنحنا أكثر مما يأخذ منا، يكفيه أنه يحقق لنا حالة توازن بين الناس.

إن صفحة الطفولة هي صفحة البراءة والتلقائية الإنسانية. عندما ننظر إلى الأطفال نشعر بأن العالم فيه متسع من البراءة والعذوبة، وينتابنا إحساس أن العالم بخير.

أعيش الآن مع ثلاثة أطفال، وأمضي برفقتهم معظم أوقاتي، أدخل عالمهم، وأتحاور معهم، وأقوم بتربيتهم، (روهات) هي ابنتي الكبرى في سنتها الخامسة الآن، و(لوند) ابني في سنته الثالثة، و(شيروان) ابني في شهره الرابع.

كنت أريد أن أقول إن تماسي المباشر مع تربية أطفالي في هذه المراحل جعلني أكثر قربًا من عالم الطفولة، وأكتشف لمسات جمالية ما كنت أخبرها، إن روهات وهي تداعب شعري تمنحني دفء الأمومة، روهات تمازحني وتميل إليَّ، وتريد أن تكون معي حتى وأنا في غرفة الكتابة، وعندما تمنعها أمها قائلة: بابا يعمل، أسمع صوتها تنادي، فأنهض وأفتح لها الباب لتدخل، وبعد قليل يطرق لوند الباب، فأفتح له، أتركهما نحو نصف ساعة وهما يقلبان كل ما يقع في أيديهما، ثم تدخل أمهما تخرجهما وتعيد ترتيب كل شيء.

إنني أعيش حياة حقيقية مع أطفالي، أستمتع بكل لحظة معهم، وحيث إن عملي يقتضي بقائي في البيت من أجل الكتابة، فإنني أمضي كل وقتي مع زوجتي وأولادي، وحتى عندما أخرج، فإنهم يخرجون معي نسهر في أماكن عامة، نتناول العشاء ونعود، ونسافر حيث نمضي الإجازات الطويلة والقصيرة معًا، ودومًا اقترح على زوجتي ضرورة عدم الصدام معهم في مطالبهم؛ لأن الطفل يمكن له أن يملأ البيت كله بالصراخ لمدة ساعتين بسبب مطلب بسيط مثل قطعة حلوى، أو ممازحته بعض الشيء.

يبيّن الحديث الشريف نظرة الطفل لأبويه: { أحبّوا الصبيان وارحموهم، فإذا وعدتموهم فوفوا لهم، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم} ، وفي موضع آخر:

{أكثروا من قبلة أولادكم، فإن لكم بكلِّ قبلة درجة في الجنة، ثم: مَن قبّل ولده كان له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة}.

إن مسايرة الطفل والتودد إليه وملاطفته، أفضل من صدّه، والبسمة مع الطفل أفضل من العبوس في وجهه؛ لأن الطفل يريد أن يرى أبوَيه رائقَين على الدوام، فالطفل هو أكثر الناس تسامحًا، وأكثرهم تقديمًا للمسرة والتوازن إلى عالم الكبار.

بدايات نشوء فكرة أدب الأطفال في الوطن العربي

اهتم العرب بأدب الأطفال، استنادًا إلى التراث العربي الإسلامي والأدبي والثقافي الذي تتجلى فيه العناية بتربية وأدب الطفل؛ ولذلك عندما ازدهر أدب الطفل في العالم ازدهر أدب الطفل كذلك في الوطن العربي، سواء من خلال ترجمة هذه الآداب الموجهة للطفل، أو من خلال تفرّغ بعض الأدباء وتخصصهم في كتابة أدب الطفل، وقد اهتم كبار أهل الفكر والأدب في الوطن العربي بهذا الأدب، وأسهموا فيه.

أدب الأطفال هو رسالة من الكبير إلى الصغير، وهو حب من الكبير للصغير، وحرص من الكبير على الصغير؛ ولذلك فإن كاتب أدب الأطفال يشعر بمسئولية جسيمة وهو يوجه كتابته إلى عالم الطفل، وهذا العالم الذي يتمتع بمزايا وخصائص وحساسية بالنسبة لكاتب الطفل الذي يعد نفسه أبًا ومعلمًا وموجهًا وتربويًا وأديبًا في الوقت الذي يكتب فيه للأطفال.

في تعريف له عن عالم الطفولة يقول (فريدريك نيتشه): "في كل إنسان حقيقي يختبئ طفل يرغب في اللعب"، فعندما يولد الطفل فإنه يكون محط عناية ورعاية أبويه، يحظى بكل ما يمكنهما أن يقدما إلى هذا المولود الجديد الذي فتح عينيه على العالم في كنفهما، ويرى الأبوان أن هذا الطفل هو مستقبلهما، وهو الحامل لاسميهما ولتاريخيهما. إنه الحياة المتوهجة الجديدة التي تتدفق بقوة في الأبوين، فيشعران بحميمية الحياة وبجديتها، وكذلك بمسئوليتهما عن هذا الكائن الصغير الذي شكّل عائلة بوجوده.

إن الأب لا يريد لأحد أن ينازعه عن مكانه وعن مكانته بأي شكل من الأشكال، ويمكنه أن يصارع العالم في سبيل الحفاظ على ما حققه خلال رحلة كفاحه في الحياة، بيد أنه ومن تلقاء نفسه يعد ابنه لينصبه مكانه، ويقدم له كل ما يملك من إمكانات مادية ومعنوية. إنه على استعداد تام ليسافر إلى أقصى بقاع الأرض في سبيل الحصول على علاج لطفله إذا ألمَّ به داء.

لذلك ولدت فكرة مخاطبة الطفل وإعداده إعدادًا أوليًا بأساليب أدبية وفنية، وتنوعت أجناس وألوان هذه الخطابات التربوية والأدبية: من قصة، ورواية، ومسرح، وشعر، وترانيم غنائية تترنم بها الأم لمولودها، وهي تهدهده حتى يعتاد سمعه على الإيقاع، ثم بعد ذلك على تلقي الكلمات التي تكون على شكل قصة، أو أغنية.

لقد تحول أدب الأطفال إلى جنس مستقل يتمتع بخصائصه ومقوماته، وبتخصص أدبائه، وكغيرهم من شعوب العالم اهتم العرب بأدب الطفل منذ

القدم، وقد بدأ هذا الاهتمام يأخذ الصدارة عند بدء رسالة الإسلام الذي دعا الأبوين إلى العناية بالطفل، وكذلك حرّم بعض التصرفات السلبية التي كان يمارسها الآباء مع البنات، وخاصة في وأدِهِنَّ، وكذلك بيعهن، أو المتاجرة بهن.

مع مرور الزمن أخذ أدب الطفل شكله الفني واستقلاله الأدبي بين سائر الأجناس الأدبية، ولعل رفاعة الطهطاوي كان من أول الداعين إلى هذا الجنس من الأدب الطفولي، وذلك من خلال ترجمته بعض القصص في أدب الطفل مثل: حكايات الأطفال، وقد أدخل الطهطاوي لأول مرة أدب الأطفال في المنهج الدراسي والتربوي؛ إذ كان مسئولًا عن التربية والتعليم في مصر.

ثم بعد ذلك ظهر اهتمام أمير الشعراء أحمد شوقي بأدب الطفل خلال وجوده في فرنسا، واطلاعه على الآداب العالمية التي خاطبت الطفل، وخاصة قراءته لكتابات (لافونتين) الموجهة للطفل، ولدى عودته إلى مصر ظهرت كتاباته القصصية الشعرية الموجهة إلى الطفل، تلك التي أوردها على لسان الحيوانات، ومن ذلك: الدجاج البلدي، والديك الهندي، والصياد والعصفورة، وكانت هذه القصائد القصصية هادفة توجه الطفل إلى القيم: الأخلاق، والكرم، وطاعة الأبوين، والصدق، والأمانة.

في قصيدته (الجدة) يقول أحمد شوقي على لسان الطفل:

لي جَـدَّة ترأف بي أحـنُّ عليَّ من أبي
وكل شيء سرني تذهب فيـه مذهبـي
إن غضب الأهل عليـ يَّ كلهم لم تغضب

إذا مشــى أبي إليـ ـيّ مِشيَـة المـؤدِّب
غضبـانَ قد هدد بالـ ـضرب وإن لم يضرب
فلم أجد لي منه غيـ ـرَ جدتي من مهرب
فجعلتـني خلفـها أنجـو بها وأختبــي
وهي تقـول لأبـي بلهجــة المـؤنّب
ويـحٌ لـه ويح لهـ ـذا الولـدِ المُعذَّبِ
ألم تكـن تصنعُ ما يصنـعُ إذ أنت صبي

إن تأليف (تشارلز بيرو) لكتابه (حكايات أمي الإوزة) سنة ١٦٩٧ جعله رائدًا ومؤسسًا لأدب الطفل في العالم، فهو أول كتاب أدبي يحاكي عالم الطفولة، ويتضمن نماذج من الحكايات الشعبية التي تلائم الطفل، وتحاور معالم مخيلته، واحتوى هذا الكتاب إحدى عشرة قصة منها: (الجمال النائم)، و(سندريلا)، و(الفتاة ذات القبعة الحمراء)، ويمكن اعتبار أن هذا الكتاب قد دفع الكثير من الأدباء للتخصص في أدب الطفل، وقد ترك أثرًا على غالبية الأدباء الذين كتبوا للطفل من بعده.

في عام ١٧٢٦ كتب (جوناثان سويفت) روايته (رحلات جليفر)، وهي عبارة عن أربع رحلات إلى أماكن خيالية تقدم للطفل شيئًا من الفكاهة وتحفز خياله.

واشتهر الأخَوان: (يعقوب، ووليم جريم) في ألمانيا بقصصهما، وخاصة في كتابهما (حكايات الأطفال والبيوت)، وقد اشتهرت قصصهما مثل قصة

(الأميرة النائمة) التي تنام لمدة ألف عام ولا تستيقظ إلا بعد أن يراها أمير جميل ويقبلها، فتستيقظ على أثر القبلة، وكذلك قصص: (الساحرة الشريرة)، و(بيضاء كالثلج)، و(ليلى والذئب).

وفي الدنمارك اشتهر اسم (هانز أندرسون) الذي يعد رائد أدب الطفل في بلاده، وله تأثير على أدب الطفل في العالم، وقد ترجمت كتبه الأربعة إلى الكثير من لغات العالم، وهي: (قصص رائعة للأطفال)، و(قصص الجن الدنماركية وحكاياتهم)، و(كتاب القصص الدنماركية)، و(البلبل وقصص أخرى)، ثم اشتهر (لافونتين) في فرنسا بقصصه للأطفال، ونال لقب (أمير الحكاية الخرافية في الأدب العالمي)، وظهرت روايتا (لويس كارول): (أليس في بلاد العجائب) سنة ١٨٦٢، و(عبر المرآة) سنة ١٨٧١.

اهتم العالم العربي بأدب الطفل المترجم، بحيث بات الطفل العربي يقرأ أشهر الحكايات والقصص المكتوبة للأطفال ويحفظها. إننا لا نستطيع أن نفصل أدب الطفل المترجم إلينا عن الأدب الذي أنتجه أدباء الطفولة عندنا؛ ذلك أن لغة أدب الأطفال تكاد تكون لغة موحدة، والطفل يتلقى هذا الأدب سواء أكان مكتوبًا بلغته، أم مترجمًا إليها، والقصة هي أقرب أساليب التربية إلى مخيلة الطفل وأكثرها قربًا منه؛ ذلك أن الطفل يترعرع على سماع الحكايات في البيت من أمه، أو من جدته، ويغفو وهو يستمع إلى القصص والحكايات حتى يترسخ ذلك في نفسه.

ومنذ عام ١٩٦٧ يحتفل العالم كله في اليوم الثاني من شهر نيسان (أبريل) من كل عام باليوم العالمي لكتاب الطفل، وفي كل عام يتم اختيار إحدى الدول الأعضاء لرعاية الاحتفالية وتقرير شعارها، ويوجه أدباء الأطفال في تلك الدولة رسالة إلى الأطفال بهذه المناسبة.

في كتابه: (أدب الأطفال من إيسوب إلى هاري بوتر) يرى (سيث ليرر) أن الطفل نشأ في حضارة اليونان والرومان من خلال النصوص والحكايات من المراجع الموجودة في حياتهم ومكتباتهم، وكان الرومان يحتفلون بالأطفال، وكان أدب الأطفال في هذه العصور يرتكز على تكوين الطفل بصفته مواطنًا، هؤلاء الناشئة الرومان يتعلمون فنهم من قراءة الآثار الأدبية الشهيرة، مثل: (هوميروس)، و(هيزيود)، و(يوريبيدوس)، و(فرجيل)، و(هوراس)، كما أن العبيد لعبوا دورًا مهمًا، بصفتهم مربين ومعلمين.

إن الكلمة التي يعبر بها اليونانيون عن الطفل هي (neption)، وكان الصغار يرغمون على دراسة (هوميروس) بصفته نموذجًا للأسلوب، وموئلًا للقصص الخرافية، وموسوعة ثقافية، والشاعر المميز للعالم الكلاسيكي، وحين يذهب الطفل إلى المدرسة يحيي المعلمين بحرارة، فيردون له التحية، ثم يطلب كتابه وألواحه، ويعدد جميع مفردات القراءة والكتابة والحساب والتسميع، كما يعدد كل أنواع الكلام، وكل مكونات الكلمات، وكل النصوص التي يقرؤها.

ارتبط اسم (إيسوب) بأدب الأطفال تاريخيًا، ونال القبول في قراءات الأطفال وتعليمهم منذ أفلاطون، وحتى العصر الحديث، ونقلت قصصه تحت

اسم: (الإيسوبيات). لقد كتب إيسوب خرافياته باللغة العامية؛ لأن إيسوب كان عبدًا. لقد أثر إيسوب في التربية اليونانية، فإلى جانب أعمال هوميروس، والمسرحيات والأمثال، كانت الخرافات تقع في قلب ما يقرؤه الأطفال ويكتبونه. وفي المسيحية تتحوّل الخرافة الكلاسيكية إلى مجاز مسيحي، فعلاقة الأب والابن هنا تتخذ هالة دينية إضافية. هكذا تحتل خرافات إيسوب مكانة فريدة في تربية الطفل.

في القرون الوسطى ظهر جيل جديد من المربين والشعراء يكتب الخرافات للأطفال من أمثال: (أفيانوس)، و(رومولوس)، حيث زودا الطفل بسياق استهلالي مختلف لدراسته الإيسوبيات. وفي القرن الخامس عشر جرى تحويل الخرافة إلى نثر لاتيني لتوضيح حكمتها الخلقية، وكانت الخرافات من أوائل الأعمال الأدبية الكلاسيكية التي ترجمت إلى اللغات العامية الأوروبية.

الكتابة الأدبية مهمة بالنسبة لمستقبل الطفل، وهي تعده ليكون رجل المستقبل، وقد انتشرت المكتبات العامة المخصصة للأطفال لتيسر لهم انتقاء الكتب التي تلائم أعمارهم.

تقول هاريت لونج: إن المكتبة الطفولية ترشد الطفل إلى انتقاء الكتب المختارة، وهي تيسير استخدام الأطفال لمجموعة كبيرة ومتنوعة من الكتب والمواد المكتبية، كما أنها تشجع الأطفال على القراءة، وغرس عادة ومتعة القراءة لديهم، وتساعده على تنمية قدراته الشخصية ووعيه الاجتماعي. كما أن أهمية وجود مكتبة الطفل هي قوة اجتماعية تتعاون مع المؤسسات الأخرى

المعنية بالأطفال، وترى جمعية المكتبات الأمريكية (ALA) أن الخدمات التي يجب أن تقدمها مكتبة الأطفال هي: المطالعة الداخلية، والإعارة، وقراءة وسماع القصص، وعرض الأفلام، وإقامة المعارض، وإعداد برامج استخدام المواد السمعية والبصرية كالراديو والتلفاز والفيديو، وإعداد برامج قرائية أثناء العطلة الصيفية.

غدا أدب الأطفال يستقطب الكثير من الأدباء الذين تخصصوا في هذا الجنس، وكذلك يستقطب بعض الأدباء من غير المتخصصين؛ ليكتبوا بعض الأعمال الأدبية الموجهة للطفل.

أدب الأطفال، ومنهج توظيف مخيلة الطفل

تعتمد مراحل الطفولة على المخيلة، خاصة في السنوات الأولى التي يعجز فيها الطفل عن النطق، ويبدأ لسانه بتعلّم الكلمات، بعد ذلك يلازمه الخيال بسبب أنه يعجز عن القيام بما يقوم به الكبار؛ لذلك يتخيل أنه يفعل ما يعجز عن القيام به في الواقع. هنا قد يستعين الطفل بشيء من المخيلة[١] عندما يترجم هذا الخيال إلى كلمات يقولها لأبويه، أو لإخوته، أو لأقربائه، أو لبعض الأطفال من الجوار، أو المدرسة، ومرحلة الكذب التخييلي هذه يمكن أن نلاحظها على الطفل بعد الثانية عشرة من عمره، وهنا علينا أن نميز بين الكذب والخيال، فهو مثله مثل كاتب القصة، يعتمد على المخيلة كي يبدع، الكذب هنا بالنسبة للطفل هو شكل من أشكال الإبداع. من هنا كان الاهتمام

بتوجيه وتوظيف مخيلة الطفل، وكان أدب الأطفال غنيًا بشذرات هذا الخيال الذي ينمي مواهب الطفل.

إن الخيال الطفولي يتدخل ليضفي على الكبير إمكانات قد لا يبلغها، بيد أن الكبير عليه أن يستجيب لهذه الصورة الخيالية، ويتعامل معها بشيء من التوظيف، وكاتب قصة الأطفال عليه أن يتمتع بخيال خصب معافى، يشطح به في أفق واسعة نحو اكتشاف مساحات سحرية الواقع، كما هو الحال في الكثير من القصص التي خلدت في ذاكرة مكتبة الطفل، مثل: (كليلة ودمنة)، و(علاء الدين والمصباح السحري)، و(السندباد البحري)، و(الأمير الصغير)، و(توم أند جيري)، و(علي بابا والأربعون حرامي)، و(سندريلا)، و(أليس في بلاد العجائب)، و(حكايات أندرسون)، و(تان تان)، و(ميكي ماوس)، و(حكايات ذات الرداء الأحمر)، و(بياض الثلج)، و(الأقزام السبعة)، للأخوين الألمانيين غريم. إنها قصص تقدّم للطفل التسلية والمتعة، وتحضه على استخدام الخيال من جهة، وعلى تلقي الخيال والتفاعل معه من جهة أخرى، بيد أن هذا الخيال يستخدمه القاص غير المتمكن بشكل ممل يبعث على الضجر؛ لأنه يخلو من المقدرة على سحر الطفل، والقصة التي تخلو من عنصر التشويق هذا، فإنها لا تترك أثرًا لديه، وهو يتأثر بها ويتفاعل معها على قدر ما تدخله إلى سحرية عوالمها.

في قصة (الأمير الصغير) يستخدم (أنطوان دي سانت إيكزويري) هذه السحرية الموجهة إلى الطفل، فلو كان الطفل الذي يؤدي بطولة هذه القصة من

أبناء كوكب الأرض، لفقدت القصة عنصر السحرية والدهشة والغرابة، بيد أنه يأتي من كوكب آخر، ويكشف للناس جماليات هذا الكوكب، وهي قصة يمكن قراءتها بالنسبة للصغار واليافعين، والكبار أيضًا، فقد قرأتها في مراحل متعددة، وكل قراءة كانت تقدم لي شيئًا لم أكن عرفته في القراءة التي سبقتها، على الرغم من أن كاتبها كتبها بشكل سريع ومختصر، وهي لا تتمتع بفنية القصة العالية، ولا بالتقنيات القصصية البارعة، لكنها قصة الفكرة الجيدة، إن الفكرة في هذه القصة شفعت للكثير من المآخذ عليها.

يقول السارد الذي تعطلت به طائرته في الصحراء الإفريقية: "رأيت وأنا في السادسة من عمري صورة رائعة في كتاب عن (الغابة العذراء) يدعى (قصص حقيقية)، وكانت الصورة تمثل ثعبانًا يبتلع وحشًا".

وقرأت في الكتاب: "إن الثعابين تبتلغ فريستها بكاملها، من دون أن تمضغها، فإذا ابتلعتها عجزت عن كل حركة، ونامت مدة ستة أشهر حتى تنتهي من هضمها"، وبعد، فكرت مليًا فيما يقع في الغابات من الحوادث، أخذت قلمًا فيه رصاصة ملونة وخططت أول رسم رسمته، ثم رأيت باكورة فني عند الكبار من الناس، وسألتهم قائلًا: أما يخيفكم هذا الرسم؟، فأجابوا: متى كانت القبعة تخيف الناس؟.

ما كان رسمي يمثل قبعة، بل ثعبانًا يهضم فيلًا. ثم رسمت باطن الثعبان؛ عسى أن يفهم الكبار، فإنهم في حاجة دائمة إلى الإيضاح. وكان رسمي الثاني كما ترى: فلما أبرزته لكبار الناس نصحوا لي بأن أدع جانبًا رسم

الثعابين من الخارج والباطن، وقالوا: الأفضل لك أن تعنى بدرس الجغرافيا والتاريخ والحساب وقواعد اللغة. فأهملت، وأنا في السادسة من عمري، مستقبلًا باهرًا في فن التصوير؛ لأن رسمي الأول والثاني لم يروقا لكبار الناس.

إن هؤلاء الكبار لا يدركون شيئًا من تلقاء أنفسهم، فلا بد للصغار من أن يشرحوا لهم ويطيلوا الشرح ويكرروا. ولا يخفى ما في هذا من التعب والعناء.

إن الطفل وهو يترك العنان لمخيلته كي تشطح به، إنما يتخيّل ما يعجز عن القيام به، وهو لايقصد الكذب؛ لأنه لايؤذي أحدًا بما يقول، بل قد يقصد النفع لنفسه أو لغيره. هنا علينا أن نميز كثيرًا بين كذب الأطفال والخيال الإبداعي عند الطفل.

الكتابة الأدبية للطفل هي علم أدبي وفني وذوقي ومعرفي، تحتاج إلى مهارة من شخص يتمتع بمزايا خاصة تمكنه من عقد رابطة وعلاقة بالطفل، فيستأنس إليه الطفل، وتتجاوب مخيلته مع الأدب الذي يتلقاه من هذا الأديب المتمكن من أدواته الأدبية والفنية والخيالية والمعرفية، وكلما تخصص الكاتب في الكتابة للطفل أنتج نتاجًا أكثر قربًا، وأكثر قبولًا من قارئه الصغير؛ ولذلك فإن كاتب أدب الطفل يجمع مزايا متعددة في شخصيته، فهو يعلم شيئًا من التحليل النفسي، ويلم بشيء من التربية، ويلم بشيء من عالم الأساطير، ويتمتع بمخيلة خصبة، وما يميز هذه المخيلة أنه يوظفها للطفل بخبرة الكبير، وهذا يختلف عن المخيلة التي يوظفها المبدع للكبار، هذه المخيلة التي أنتجت الكثير من مذاهب الأدب والفكر، فالفانتازيا أيضًا تعتمد على المخيلة، والسوريالية

تؤسس قواعدها على المخيلة، كما أن الطفل يستحق منهجًا تربويًا، فإنه يستحق أن يتخصص الكاتب في إنتاج الأدب الموجه إليه.

إن عالم الطفولة هو عالم غني بكل مقومات الإبداع والعطاء الأدبي، وهو عالم متجدد يمكنه أن يلهم دومًا أفكارًا جديدة تكون صالحة لإبداع جديد في أدب الأطفال، وتعتمد مراحل الطفولة على المخيلة، خاصة في السنوات الأولى التي يعجز فيها الطفل عن النطق، ويبدأ لسانه بتعلّم الكلمات، بعد ذلك يلازمه الخيال؛ بسبب أنه يعجز عن القيام بما يقوم به الكبار؛ لذلك يتخيل أنه يفعل ما يعجز عن القيام به في الواقع. هنا قد يستعين الطفل بشيء من الكذب عندما يترجم هذا الخيال إلى كلمات يقولها لأبويه أو لإخوته أو لأقربائه، أو لبعض الأطفال من الجوار أو المدرسة، ومرحلة الكذب التخييلي هذه يمكن أن نلاحظها على الطفل بعد الثانية عشرة من عمره، وهنا علينا أن نميز بين الكذب والخيال، فهو مثله مثل كاتب القصة، يعتمد على المخيلة كي يبدع، فالكذب هنا بالنسبة للطفل هو شكل من أشكال الإبداع. من هنا كان الاهتمام بتوجيه وتوظيف مخيلة الطفل، وكان أدب الأطفال غنيًا بشذرات هذا الخيال الذي ينمي مواهب الطفل.

إذا نظرنا إلى كتب سير كبار الكتاب نراهم يتحدثون عن شيء من هذا الخيال في مراحل طفولتهم. ففي سيرته الذاتية[٢] يتحدث الروائي (هيرمان هِسّه) عن وقائع طفولته، ويبيّن كيف أن تلك الطفولة أسست فيما بعد لتكوين شخصيته الإنسانية والأدبية معًا. يتحدث في البداية عن مرحلة الطفولة، وكيف

أنه كان يميل إلى أن تكون له شخصية مميزة، ويرجِع سبب اندفاعه للكتابة إلى سنوات الطفولة، حيث حلم بأن يكون ساحرًا، حتى يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه في الواقع، وما لم تسمح به طاقته العقلية والجسدية.

يقول: لذلك تملكتني رغبة ملحة لتغيير الواقع بالسحر وتبديله والرقي به، ثم يضيف: في طفولتي اتخذتْ رغبتي في السحر اتجاهًا نحو أهداف خارجية صبيانية، كنتُ أود أن أجعل شجرة التفاح تثمر في الشتاء، وأن تمتلئ محفظتي عن طريق السحر بالذهب والفضة، وبواسطته حلمت بشل أعدائي، وبإلحاق العار بهم، ولكن بشهامة؛ لأتوج بعدها بطلًا وملكًا، ويقول: أردت أن أكون قادرًا على أن أجد الكنوز الدفينة، وعلى جعل نفسي لا مرئيًا، واعتبرت قدرة المرء على إخفاء نفسه أكثر القدرات أهمية، وتقت لامتلاكها بشدة.

يعترف هِسه بأن الكتابة استطاعت أن تخلصه من هذا الهاجس حينما كبر واكتشفها قائلًا: فبعد أن كبرت بمدة طويلة، وزاولت مهنة الكتابة حاولت مرارًا أن أتوارى خلف مخلوقاتي، أعيد تعميد نفسي متخفيًا بمرح خلف أسماء مبتكرة، وقد جعلتْ هذه المحاولات زملائي الكتاب كثيرًا ما يسيئون فهمي، ويعتبرونها مأخذًا عليّ، ويستأنف سرده قائلًا: عندما أنظر إلى الماضي أرى كيف تغيرت اتجاهات هذه الرغبات السحرية بمرور الزمن، وكيف حولت جهودي تدريجيًا من العالم الخارجي وركزتها على نفسي، وكيف طمحت لأن أستبدل بالعبارة السحرية الساذجة وقدرتها على الاختفاء قدرةَ اختفاء الحكيم

الذي يرى كل ما حوله ويبقى هو غير مرئي دائمًا. هذا التوق الذي أصبح فيما بعد المضمون الحقيقي لقصة حياتي.

إن الكتابة الأدبية للطفل هي علم أدبي وفني وذوقي ومعرفي يحتاج إلى مهارة من شخص يتمتع بمزايا خاصة تمكنه من عقد رابطة وعلاقة بالطفل، فيأنس إليه الطفل، وتتجاوب مخيلته مع الأدب الذي يتلقاه من هذا الأديب المتمكن من أدواته الأدبية والفنية والخيالية والمعرفية.

المراجع:

١. عبد الباقي يوسف: توظيف مخيلة الطفل أدبيًا ، الكويت: مجلة العربي، فبراير ٢٠١٢.

٢. هيرمان هِسه: سيرة ذاتية، ترجمة: محاسن عبد القادر، بيروت: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٩٣.